فرقة الخـــوارج

بقلم فريد مصطفى عز الدين

فرقة الخوارج من تلك الفرق الهدامة التى نشأت فى مختلف مراحل التاريخ الاسلامى ، وكانت حرباً على الدولة الاسلامية ، وعقبة كأداء فى طريق عزها وازدهارها . أما العوامل التى أدت إلى ظهور الخوارج فكانت فى بادئ الأمر سياسية ثم ما لبثت ميولهم أن اتجهت إلى الناحية الدينية فأخذوا يحوكون حولها معتقداتهم ونظرياتهم

تسميتهم

لا نجد فى التاريخ الاسلامى كله فرقة تعددت أسماؤها كهذه الفرقة ، غير أن اسم الخوارج قد غلب عليها . وقد سموا بالخوارج لخروجهم على الامام على بن أبى طالب فى معركة صفين سنة ٣٧ هجرية لقبوله التحكيم وقولهم : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال . ويقول بعض المؤرخين إنهم دعوا بالخوارج لخروجهم بعد ظهور نتيجة التحكيم فى رمضان سنة ٣٧ هجرية من الكوفة إلى النهروان . ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق على كل جماعة خرجت على القانون والسلطة الحاكمة سواء فى صدر الاسلام أو زمن التابعين

أما الخوارج أنفسهم فيقولون إنهم تسموا بهذا الاسم لخروجهم من بيوتهم طلباً للجهاد والاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله والدين الحنيف ، ويستندون فى ذلك على قول الله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلُّوا فليصلُّوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، وَدّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم مَيلةً واحدة ، ولا جُناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعدّ للكافرين عذاباً مُهينا »

وهنالك اسم آخر يطلق على هذه الفرقة وهو اسم الشراة ، ويقال إن الخوارج يفضلونه على الاسم الغالب عليهم ، لأن هذه التسمية تعنى أنهم اشتروا الجنة بالدنيا واستبدلوا الباقية بالفانية استناداً على الآية الكريمة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيْعِكمُ الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ودعيت هذه الفرقة أيضاً فرقة المحكمة ، وذلك لأنها حكمت الله تعالى ورفضت تحكيم العبيد . ويميز المؤرخون الفرقة الأولى من الخوارج التى انشقت على علىّ بن أبى طالب فى صفين عن الخوارج بدعوتها الفرقة المحكمة الأولى أو الحارورية نسبة إلى حارواء بقرب الكوفة ، وهى المكان الذى خرجوا إليه ، ويدعون بقية الخوارج فرقة المحكمة

نشأتهم

من الصعب أن نعين العلاقة بين ظهور الخوارج ومسألة التحكيم ، فنقول إن هذه نتيجة لتلك وإنه لولا مسألة التحكيم لما اعترى جيش الامام على ذلك الانقسام ولما نشأت فرقة الخوارج ؛ وقد عنى البعض ببحث هذه النقطة فتبين لهم بعد دراسة عميقة أن نشوء الخوارج ومسألة التحكيم مستقلتان عن بعضهما استقلالاً تاماً . ويعتقد المستشرقون لامانس وكايتانى وولهاوسن أن فرقة الخوارج ظهرت قبل التحكيم مما يدل على صحة الرأى القائل باستقلال المسألتين بعضهما عن بعض . ولكن المستشرق ديلافيدا يخالف رأى لامانس ورفيقه ، ويقول إن الخوارج ظهروا بعد التحكيم

معركة صفين

تولى على بن أبى طالب الخلافة والعالم الاسلامى فى غليان شديد من جراء مقتل الخليفة عثمان بن عفان وعواقب هذه الجريمة ، فلم تكن مبايعته بالاجماع كأسلافه . وكان عدوه الأكبر معاوية بن أبى سفيان والى الشام الذى خرج طالباً للثأر من قاتلى قريبه الخليفة المغدور . فلما انتهى على من أمر طلحة ابن عبد الله والزبير بن العوام فى موقعة الجمل بالقرب من البصرة سار طالباً معاوية فالتقى الجيشان فى سهل صفين وهو مكان قريب من بلدة الرقة فى شمالى شرق الشام

وفي أول صفر من سنة ٣٧ هجرية ، ابتدأ القتال بين الفريقين فرجحت كفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فخاف معاوية العاقبة ، وعمد إلى الحيلة يساعده على إتقانها الداهية الأكبر عمرو ابن العاص . وبينما كانت الحرب مستعرة إذا بجنود الشام يرفعون المصاحف فجأة على أسنة الرماح طلباً للتحكيم . فلم يؤخذ علي بهذه الحيلة ، وقرر الاستمرار في القتال إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا . ولكن فريقاً كبيراً من جنده على قبل التحكيم وحمل زعيمه على قبوله رغماً عنه . وبعد أن رضي الامام بالتحكيم قام فريق آخر من جنده ينددبالتحكيم ، ويصيح : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال ، ويظهر أنه كان بين هذا الفريق بعض من أتباع الفريق الأول . فانقسم بذلك جيش علي إلى شطرين ، ونجحت الحيلة التي قال فيها عمرو « إن قبل خصومنا التحكيم اختلفوا ، وإن ردوه افترقوا »

ولما ظهرت نتيجة التحكيم التي تقضي بخلع علي عن الخلافة — ولا أقول معاوية ، لأن اقرار عمرو بن العاص بخلع صاحبه لم يؤثر في مركز معاوية لأن خلعه كان وهمياً ، إذ أن معاوية لم يكن خليفة ليخلع عن عرشها — رفض علي قبولها ، وهكذا أضعفت نتيجة التحكيم مركز علي وقوت مركز معاوية

فقويت برفض علي لنتيجة التحكيم حجة الفريق القائل بعدم قبول التحكيم منذ بادىء الأمر ، واكتسب إلى صفه جميع الموتورين من سياسة الامام . وهكذا نرى أن فريق الخوارج كان مؤلفاً من جماعات متفككة المرى تجمعها مناوأة سياسة علي ، إما لأنه لم يقبل التحكيم أولاً أو لأنه قبل التحكيم ثانياً ، أو لأنه رفض قبول نتيجته ثالثاً . والقسم الأكبر من الخوارج هم الذين أخذوا على علي قبوله التحكيم صارخين : لا حكم إلا لله . ثم انضم إلى هذه الفرق المختلفة كل من كان ناقماً على السلطة أو خارجاً على القانون ، حتى أصبح معسكر الخوارج ملجأ لهؤلاء ، أيام الراشدين والأمويين والعباسيين

وبعد انشقاقهم على جيش الخليفة ساروا إلى حاروراء وانتخبوا عبد الله بن وهب الراسبي خليفة عليهم . وقد اضطر على أن يحمل عليهم قبل أن يسير لقتال معاوية ليأمن شرهم ، فقاتلهم في معركة عظيمة تدعى معركة النهراوان في ٨ يوليو سنة ٦٥٨ ميلادية ، وتغلب عليهم ، غير انه دفع ثمن هذا النصر غالياً ، لأن هذه المعركة أضعفت جيشه فأصبح عاجزاً عن المسير إلى سورية لحرب معاوية ، وبقي بالكوفة إلى أن قتله ابن ملجم الخارجي سنة ٦٦١

الخوارج في عهد الدولة الأموية

اشتدت في عهد الدولة الأموية قوة الخوارج ، وكانوا من العوامل الرئيسية التي طاحت بحكم الأمويين ، فما من خليفة أموي إلا ثاروا عليه ، غير أنهم ظهروا واشتهروا خصوصاً في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكانت ميادين القتال العراق وخراسان . وقد بدأ بقتال الخوارج مصعب بن الزبير — شقيق عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان في الخلافة — وكان قائده المهلب بن أبي صفرة . ولما تغلبت قوات عبد الملك على الزبيريين وقتل مصعب كان لا يزال المهلب يحارب الخوارج فبايع عبد الملك بالخلافة حالما بلغه نبأ مصعب وتابع قتاله .

ثم أرسل عبد الملك في سنة ٧٥ هجرية الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق فتمكن بشدة بأسه من خضد شوكة الخوارج . وقد امتازت فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق من فرق الخوارج ببسالتها وشدتها واستماتتها في ميادين القتال والنزال

الخوارج في عهد الدولة العباسية

ضعف أمر الخوارج في عهد الدولة العباسية ولم تعد فرقهم خطراً على الدولة الاسلامية كما كانت نشأتها في العصر الأموي ، غير أنهم لم يعدموا أوقاتاً قاموا فيها ببعض الثورات والفتن . وقد اشتهرت من بين فرقهم في هذا العهد فرقة الاباضية أتباع عبد الله بن أباض التي ظهرت في عمان وعلى الخليج الفارسي وفي افريقيا الشمالية أي تونس الخضراء والجزائر والمغرب الأقصى

ولما غلب الخوارج على أمرهم في الناحية السياسية أخذوا ينصرفون إلى الناحية الدينية ويحوكون حولها نظرياتهم ومعتقداتهم الدينية

تصلب الخوارج وشدتهم في المعتقدات الدينية

عرفت فرق الخوارج واشتهرت بتصلبها الديني الشديد وتمسكها بالمعتقدات الدينية التي تدين بها ، ولذا كانت كل جماعة منهم ترى أن زعيمها بدأ ينحرف عن المبادىء التي تعترف بها

انشقت عنه وعن أفراد فرقها وكونت لها فرقة خاصة ، وهذا هو السبب فى تعدد فرق الخوارج وتشعبها : ومن هذه الفرق الفرقة الاباضية والفرقة الصفارية والأزاردة والعجاردة والنجدات وغيرها . وكانت كل فرقة تنقسم إلى فرق صغيرة عديدة ، وقد ذكر الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ثمانى فرق من الأزارقة . ولا ريب أن انقسام الخوارج إلى فرق متعددة كان عاملاً قوياً فى إضعاف شأنهم وزوال هيبتهم

معتقدات الخوارج السياسية

قلنا فى صدر هذا المقال إن حركة الخوارج بدأت حركة سياسية ثم تحولت بمضى الوقت إلى حركة دينية . ولذا فان معتقداتهم تدور على وجهين سياسى ودينى . فأما معتقداتهم السياسية فتدور حول مسألة الخلافة ، ولهم فى هذه المسألة مواقف أساسية يخالفون بها السنة والشيعة . فهم مثلا لا يقيدون جنسية الخليفة ولا يمانعون فى أن يكون حتى زنجياً ، بينما أن السنيين لا يجيزون سوى انتخاب قرشى للخلافة . أما الشيعة فيذهبون إلى أبعد من ذلك ولا يعترفون إلا بالخليفة الذى هو من آل البيت

ولا يرى الخوارج أن من الضرورى وجود خليفة على رأس الأمة إذا انتظمت أمور الرعية ، بينما أن الشيعيين يقولون بوجوب بقاء الامام فى كل عصر ودهر . أما السنيون فليس عندهم اجماع عام على هذه المسائل

وليس الخليفة معصوماً عن الخطأ كما هو الحال عند الشيعة ، فهم يجوزون القيام عليه حتى قتله إذا بدا منه اعوجاج أو عدل عن الصراط المستقيم الذى يتحتم على الخلفاء أن يتبعوه . وهم لا يعترفون من الخلفاء الراشدين إلا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولا يعترفون بالخلفاء الأمويين والعباسيين وأصحاب موقعة الجمل أى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام

معتقدات الخوارج الدينية

أشرت آنفاً إلى التعصب الدينى الشديد الذى اشتهر به الخوارج ، فهم يطلبون من المؤمن أن يقرن إيمانه بالعمل الحسن إذا أراد الثواب ، لأن الايمان وحده غير كاف لدخول جنة الفردوس . ويكفر الخوارج صاحب الكبيرة ، فهم بذلك على عكس فرقة المرجئة التى ترجئ تكفير المؤمن الى يوم القيامة . ويذهب الأزارقة — ومذهبهم أشد مذاهب الخوارج تصلباً — إلى أن مخالفيهم مشركون ، ودرجة الاشراك عندهم أشد وأدهى من درجة الكفر ، فهم يستبيحون قتل مخالفيهم مع نسائهم وأولادهم

ومن الغريب أن هذه الفرقة المتعصبة لمذهبها ، الصلبة فى معتقداتها ، القاسية على إخوانها من المسلمين متسامحة مع اليهود والنصارى وغيرهم من الذميين . والبعض من الأزارقة يعتبر غير المسلم مؤمناً إذا اعترف برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين . ويظهر تسامحهم نحو غير العرب فى أنهم يجيزون خلافة كل مسلم سواء أكان حبشياً أم عبداً زنجياً

ويتردد بعض الخوارج فى قبول سورة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم لاعتقادهم أنها سورة غرامية ، فلا يمكن أن يحويها كتاب الله . والبعض الآخر يتردد فى قبول سورة أبى لهب

أما فى الفقه فهم لا يعترفون من أصوله الأربعة إلا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة واجماعهم فقط لاأجماع الأمة الاسلامية. أما القياس فلا يعترفون به ولا يقبلونه ركناً رابعاً للشريعة الاسلامية السمحاء التى سنها الله جل جلاله للمسلمين نبراساً وعنواناً . أما التفسير فهم لا يقيدون أنفسهم به ولا يؤولون

ويظهر تصلبهم الدينى بوضوح فى فروض الصلاة ، إذ لا يكفى فى نظرهم أن يكون الجسم عند الصلاة طاهراً ، بل يجب أن يكون الفكر كذلك ، لاعتقادهم أن الفكر السيء يبطل الصلاة كما أن الجسم الملوث يبطلها . ونظراً لتصلبهم الشديد فى معتقداتهم السياسية والدينية دعاهم بعض المؤرخين الغربيين The Puritans of Islam

فلسفة الخوارج وأثرهم

ويمثل الخوارج فى إحدى فرقهم حركة فكرية لا يستهان بها جعلت المستشرق الكبير ديلافيدا يجزم بأنه يجب أن يكون من جراء ذلك علاقة وثيقة بين المعتزلة والخوارج . وتنحصر أهميتهم من الناحية الفلسفية فى إثارتهم مسألة الايمان والعمل وكان مجرد تطرف معتقداتهم يجذب إليهم أحياناً البعض من العلماء والأدباء والشعراء الذين تستهويهم المبادئ المتطرفة